

التاريخ في سيرة أبطاله

ابراهيم لنكولن

هزيمة الاممراج الى عالم المربية
للاستاذ محمود الخفيفيا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسفها
الأعلى من سيرة هذا المعاصي العظيم

- ١٧ -

—>>><<<—

عاد المحامي بكده من أجل قوته كدحاً شديداً ، وبأخذ
قسطه من النصب مع ضديقه هرنندن ؛ وكان قد تركه وحده
طيلة ذلك الصراع العنيف ، فهو بذلك يخرج من جهد إلى جهد ؛
والناس بمجبون من تلك القوة البدنية التي ما زال يتمتع بها
قاطع الأخشاب في الغابة بالأمس وهو اليوم قد ناهز الخمسين أو كاد
وإن به بمد عودته هذه لحاجة شديدة إلى المال فهو اليوم
ذو عسرة ؛ وإنه لن يطلب المال ليستعين به في الوصول إلى جاه
كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس ، بل لينفق
منه فيما باتت تطلبه السياسة من أوجه الاتفاق ؛ وإنه ليفطن إلى
أن عودته إلى المحاماة إنما هي إلى أجل قريب ، فلقد خطا في السياسة
خطوة لن يكون بعدها نكوص

ولم يحمل إبراهيم للمحاماة كل هم كما كان يفعل من قبل
حيناً كان يعني بالفشل في السياسة ؛ فإن للسياسة اليوم نصيباً
كبيراً من وقته ومن جهده ؛ فهو يقرأ الصحف قراءة تعمق
ليرى ماذا يقول الناس في مسألة المبيد ، ولينظر في الأمر ليتعرف
كيف يتطور وإلى أين يتجه البلاد فيه ؛ وهو يدعم ببيان حزبه
في أليونس ويمدله ما استطاع من قوة يمتد بها في غد

ونظر الناس إليه اليوم نظرهم إلى ذي جاه ، ويشيرون إليه
في إعجاب وإكبار ، وهو يحس هذا فلا يزداد إلا دعة وليناً ؛
فيدل بذلك على أن عظمتة عظمتة حقيقية تبدو للناس في أبسط
مظهر لها فتكون بذلك في أبعى مظاهرها .. :

والعظمة الحق كالذهب الحر في بساطة جوهره وبهاء منظره

ولن يخرج الذهب عن صفته إذا وجد غفلاً من الزخرف ؛
والنحاس مهما أدخل عليه من النقش والزينة لن يكون إلا نحاساً ؛
والعظمة الحق هي التي تخلق الرجال وتبينهم ، وليست هي تلك
التي يختلقها الرجال فيكون الواحد منهم بما يتصنع ويتكاف كالذي
يحطّر في حلة رائمة وهو لا خلق له ؛ فلا تخفى الحلة سمته ، ولا
يكون منها إلا أنها تظهره أقبح منظرأ وأحققر أصرأ ؛ فهو إنما
يبنه الناس بما ينتحل ويدعى لنفسه من أوجه الكمال إلى حقيقته
فيرون أنه ليس بالكبير ولكنه يتكبر ، ولا تقع أعينهم منه إلا
على مظهر وإن كان ليخيل إليه أنه جوهر ...

ولقد كان لنكولن يفعل الفعل أو يرى الرأي في أمر من
الأمر عن لقائه مدهشة وطبع معجب بكاله ، فاذا رددت فعله
أو رأيته على ما تواضع الناس عليه من عرف وما انفتحت عليه عقولهم
وقلوبهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً ؛ بل إنك لتراه حقيقاً
أن يسير الناس كما يرسم ، كأنه في أعماله كوكب في هذا الفلك
الدائر يتحرك وفق نظام محدود فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن
ينفطر عقد ذلك النظام

وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع الناس بينهم وبينه
الكلفة ، فهو يصاحبهم ويماشيهم كأنه أصغرهم فدرأ ؛ وهو على
كثرة بره بهم لا يبتنى على معروف جزاء . وكان إذا غشى مجلساً
لم رآهم ينتحون له عن مكان الصدرة فيأبى إلا أن يجلس حيناً
اتفق له ؛ وإنه ليستحي أن يناديه الناس باسمه مجرداً عن كل لقب
يراد به التعظيم وهو عندهم أيب الأمين أو أيب المجوز أو هما معاً ،
وهي ألفاظ لها في أذنه سحر الفناء لأن فيها جمال الصدق وجلال
التواضع ...

وحسبك دليلاً على جمال نفسه وطيب عنصره أنه طلب إليه
يومئذ أن يكتب كلمة فيها ملخص حياته لتكون مرشداً إلى ترجمة
توضع له فلم يشر إلا إلى أنه نشأ في الغابة من أبوين فقيرين ، وأنه
عمل منذ صغره على كسب قوته فساعد أباه تارة واشتغل أجيرأ
تارة ، وأنه تعلم القراءة والكتابة دون مساعدة تذكر من جانب
غيره ، وأنه ذهب إلى نيوار لينز في تجارة لأحد الناس ، وأنه
اشتغل بعدها مبيعاً في حانوت ، وأنه عمل في تخطيط الأرض
وفي توزيع البريد ، وأنه طالع المحاماة حتى حذقها ، وأنه اختير عضواً

في مجلس الولاية... كل أولئك دون أن ترى في كلمته هذه عبارة تشمر بفخر أو تنم على زهو، حتى أنه ما استطاع أن يشير بكلمة إلى ما أساب من نجاح في السياسة، وهو إن فعل لم يك يمدو الحقيقة في شيء...

رجع إبراهيم إلى سبرنجفيلد ولكن اسمه ملء الأسماع في كل مدينة من المدن الكبيرة وخاصة في الشمال؛ والصحف لا تقف تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس، ولا تكاد تذكر مسألة المبيد إلا مقرونة باسمه؛ ثم إن مسألة المبيد تذكر اليوم معها مسألة أخرى هي مسألة الوحدة، فقد أخذت تزداد في الجنوب دعوة الداعين إلى الانفصال عن الشمال؛ وكان خصوم إبراهيم يجهلون أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهوري السبب في هذا الانفصال إذا تم، وكانوا يسمونه الجمهوري الأسود حنقاً عليه وكيداً له...

وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة في الشمال ليخطب الناس فيها، فأعرض أول الأمر عن إجابة هذه الدعوات قائلاً: إنه إن ترك عمله في المحاماة مدة كما فعل من قبل فسوف يدمر قوته؛ ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه والطمع عليه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام؛ وإذا قالي مجادلهم من جديد ما من ذلك بد...

وكانت ماري على ما به من خصاصة تطلب منه الكثير من المال لتظهر به في المظهر القوي يليق بما أصبح له من مكانة؛ وهي في الوقت نفسه لا تنفك تستعجله في السياسة وتحرص ألا يتهاون في أمر من أمورها

ولقد عظمت ثقته بنفسه؛ ولكن تواضعه يثقل عليه فيرى نفسه بين عاملين يتنازعانه، فينهاه. يغلن إلى قوته ويحس أن منطق الحوادث يسير به إلى حيث يصبح رجل الساعة، إذا به - وكانه يخشى الخيلاء - ينظر إلى نفسه نظرة لولا ما عرف عنه من الصدق والصراحة لأخذت على أنها نوع من المكر يلجأ إليه لئلا يفي نفسه. فهو يسر إلى صديق له أثناء منازلته دوجلاس أن أسرته تتوقع أن سيصبح رئيس الاتحاد، ثم يقول لهذا الصديق وهو يستجك ملء نفسه ويداه تمتلئان ركبتيه وهو مستلق على ظهره: «صور لنفسك يا صاحبي كيف يصير أبله مثلي رئيساً»

يا لله لهذا الرجل؛ ولكن المبدأ عنده كما أسلفنا فوق كل اعتبار آخر، وما الرئاسة عنده إلا غرور ما لم تكن وسيلة إلى تحقيق ما استقر في نفسه، لذلك كان يجهد ويدأب كلما خاف على مبادئه أن تمصف بها الأهواء والمغالطات، ولم يخطر بباله يوماً ما أن يخطو خطوة واحدة من أجل غرض شخصي

وكان لا يزال يرى في دوجلاس أخطر خصومه، لا لما كان بينهما من منافسة، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من المكر الشديد والقدرة على أن يخدع الناس في سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطاعه الشخصية وهو لا يرى في الحق إلا ولا ذمة

وكان دوجلاس لم يكفه ما كان من جدال فعمل في أهاير على الحزب الجمهوري وقذفه بما شاء من اتهامات. فذهب لكونن وخطب الناس في كوليس ورسنستاني، وفي هذه المدينة أعلن سياسته في صراحة وجلاء، قال: «إني أعلن أول الأمر لأهل كنتولي أني كما يقولون - ولكن كما أفهم أنا - جمهوري أسود؛ إني أعتقد أن نظام المبيد خطأ خلق وسياسي، وإني أود ألا تنتشر العبودية من بعد في هذه الولايات المتحدة»

ولم يقتصر كلامه على نظام المبيد بل تكلم في شؤون أخرى كانت تهتم الناس، منها رأس المال ونظام العمل، ولقد أطرط في ذلك السامعين وملك مشاعرهم؛ ولما رأى إقبالهم على هذا الحديث أعاده في سوق جمية زراعية في حفل أقامته بعد ذلك بأسبوعين فقال إنه يرى رأس المال مديناً في وجوده للعمل، فالعمل لذلك أهم وأعلى منزلة، وإن خير عمل هو ما يقوم به الفرد الحر الذي المستقل الذي يمد دخر البلاد وعناؤها...

وفيما هو ينافح عن حيزه ويجادل خصومه في مبادئه إذ وقع في البلاد أحداث جديد زاد هياجها، وكان مثله مثل الزيت يلقى به على النار وذلك هو حادث جون برون، فإن هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير المبيد، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم في كنساس، ولقد عول اليوم أن يذكر ناز الثورة في البلاد إذ لم يطلق صبراً على بقاء هذا النظام البنيض، وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يترصدون به ليقنلوه هو...

قامته الطويلة وبديه الكبيرتين اللتين تدلان في جلاء على أنهما خلقتا للعول لا للقلم ، ووجهه الصفار المسنون الذي تغشاه سحابة عميقة من الهم ، وعينييه الواسعتين اللتين تمران عن وداعة الأطفال وحماة الأبطال ، وأنفه الأشم الغليظ الذي يترجم عن صرامة عزيمته وشدة في الحق ، وشعره الأشعث الذي يملو رأسه الكبير في غير نظام كأنه ألفاف النابة ...

وكان صوته في أول الأمر خافتاً ، ولكنه أخذ يملو حتى ملأ الأسماع . وصفه أحد الحاضرين فقال : « أخذ وجهه بضيء بما في باطنه من نيران ... وجلجل صوته وعظمت قوة خطابه ، واتفق له إلى حد كبير مثل سهولة الانجيل البالغة .. وكان يسود المكان صمت عميق بينما هو يتكلم حتى لقد كان إذا سكنت يسمع هسيس الغاز منبعثاً من ثقب المصاييح ، فاذا تحمس السامعون دوت في جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان »

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية قاطبة . قال عنه جربلي - وهو الذي رأيناه قبل ذلك بعامين يدعو إلى أن ينضم دوجلاس إلى الحزب الجمهوري ففقد بذلك مودته - : « ما من رجل استطاع أن يبلغ لأول مرة بخطابه إلى مثل هذا الأثر الذي بلغ إليه لنكون أمام جمهور المستمعين في نيويورك » عاد لنكون فوضح خطة الحزب الجمهوري بما لا يدع مجالاً من بعد لدسائس خصومه ، ثم استنكر ما فعله جون برون وبما ذكره في ذلك قوله : « لا يمكننا أن نمارض في الحكم على جون برون جزاء خيائته ولاية من ولايات الاتحاد ، لا يمكننا أن نمارض في ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ نظام المبيد فان ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة »

وأقبل عليه الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم يهتفونه بما ظفروا به من توفيق في هذا الحفل الشهود ، ويملنون إليه حبهم وولدهم وإعجابهم بمبادئه . ولقد طار صيته بهذا الخطاب على نحو لم ير مثله من قبل ، وأخذ الناس يحسون أنه الرجل الذي تجتمع عليه القلوب والآهواء . ولقد رأى الصحف وهو في طريقه إلى سبرنجفيلد تتحدث عن ترشيحه للرئاسة في الانتخاب الذي يحل مبعاده في نهاية هذا العام ...

الخصيف

« ينبع »

خرج هذا الرجل في ثمانين لا أكثر من الرجال ، منهم خمسة من الزوج ؛ وكان قلبه بفيض حماسة ، فأعلن خطبته في جراءة الأبطال واستهتارهم بالموت ، ألا وهي حق كل زنجي أن يثور على مالكة ، فليس أمام هؤلاء الزوج غير القوة ؛ ولكن جون برون لم يكذب بخطوة الخطوة الأولى ويستولى على مركزه بجعله قاعدة لحر كته حتى غلب على أمره فحوقم وأعدم ... ولقد قابل الموت بجرأة ثابت ونفس هادئة . ولما حانت منيته استنزل امنة الله على الظالمين أعداء الحرية ...

واغتدى جون برون بأنه ثم بمرتته هذه بطلا عند دعاة التحرير في الشمال ؛ وأخذوا ينظمون الأناشيد في بطولته ويحملونه رمزاً لأحرار الشبائل ومثالاً يجب أن يحتذيه كل من كان له قلب يخفق بحب الحرية ... ويرى دوجلاس في هذا الحادث فرصة يحذر أن تقوته ، فيعلن أن ذلك ليس بمعجب فلن تقضى مبادئ الجمهوريين إلا إلى مثله ...

وأدرك لنكون خطر التهمة ، ولو كان غيره مكانه لأخذه مما رمى المارد الصغير ورطة ؛ ولكن صوت الحق لا يضيع في ضجيج الباطل ؛ فهذا لنكون يتلقى دعوة من جماعة في نيويورك فيلي مسرعاً ويأتي خطاباً من أبدع وأروع ما واثته به عبقريته وفي جمع لم يسبق أن وقف في مثله

احتشد لسامعه في تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأي وذوى الثقافة وأساطين الصحافة ، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر ... واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكون ، هذا الذي كان يشتغل نجاراً أول ما نشأ فاستطاع أن يرق حتى يقف من دوجلاس الشهير موقف اللند من نده وأن يظهر عليه في الخطابة والمجادلة ...

ولقد ارتاع فؤاده عند ما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة في ملابسهم الأنيقة ، ورأى في وجوههم نضرة التميم وفي أحاديثهم وتحياهم روح المدنية ؛ ولما نهض للخطابة شاهد بعض الناس علامات الحيرة عليه ، فقد كان على غير ما ألف مشغول البال بملابسه المهدلة المثقفة التفصيل والحياء التي تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جرى بها من متحف وتطلع عامة الناس إليه في دهشة ، وتسمت الحائظهم بين